التكامل بين الاقـ

يقول فضيلة الدكتور عدنان علي رضا النحوي: «ولا يستطيع الأدب الإسلامي، نثرا أو شعرا، أن ينعزل عن سائر ميادين الإسلام، إنه مرتبط بها متصل معها، يغذيها وتغذيه، وينميها وتنميه. وبغير هذا الارتباط والاتصال بين جميع الميادين من خلال النهج والتخطيط، سيفقد الأدب الإسلامي كثيرا من خصائصه، وقوى من قواه.

إنه ينعزل بذلك عن الواقع الذي يعيشه، وينعزل عن تربته الحقيقية وغذائه الحقيقي. وهذا الارتباط لا يتم إلا من نهج موحد، وخطة واحدة، تدفعها المواهب، ويرسمها العلم، و ويرسي قواعدها الإيمان. فميدان الدعوة والانطلاق، وميدان التربية والبناء، وميدان الدراسات والتخصص، وميدان الاجتماع، وميدان الجهاد، وميدان الاقتصاد، لو عمل كل ميدان وحده منعزلا مفصولا لفقد كل ميدان خصائصه، وخسرت الدعوة الإسلامية الكثير الكثير من مقوماتها، وفقدت النصر في كثير من جولاتها»[1].

بقلم: د. يوسف السعيد*
السعودية

هذا التوجيه لم نكن لنحتاجه لو أننا نعيش في ظل حضارة إسلامية صرفة، حيث إن الفلسفة المتخصصة في مجال بعينه تكون ذات استقامة واتساق مع بقية الفلسفات المتخصصة لأنها جميعا تشكل الفلسفة الكلية المتكاملة للحضارة الإسلامية. لكننا في ظل النظرات الجزئية وفي ظل الفرديين ودعاة الخصوصية الإبداعية نحتاج لمثل هذا أو أكثر. ولا ينبغي أن يفهم من ذلك أننا ضد التخصص والإبداع كل في ميدانه، إلا أن ذلك ينبغي أن يتم في رحم إسلامي لا في رحم غربي، وشتان بين الرحمين. الرحم الأول ينتج لنا إنسانا متكاملا بإذن ربه، أما الثاني فينتج لنا أذنين ولسانا وشفتين... أشلاء متناثرة.

لقد آن الأوان للعمل بهذا التوجيه وبثه في أوساط الناشئة من الأدباء حتى تتشكل لهذه الأمة عقول تحمل البذرتين معاً، علَّ ذلك ينتج لنا أدباً يساعد البعيدين عن هذا الحقل على فهم الحالة الراهنة للاقتصاد العالمي ومن ثم على السعي لعولمة المفاهيم الإسلامية في المجال الاقتصادي وفي غيره من المجالات.

أقول هذا الكلام لأن قضية إعادة الهيكلة الاقتصادية أصبحت شأنا عالميا يعم كل الجهات ولا يقتصر الأمر على الدول المسماة بالنامية فقط، أو تلك التي اعتادت نظام الاقتصاد الموجه، و تحاول الآن التحول نحو اقتصاديات السوق الحرة، بل إن إعادة الهيكلة تشمل حتى تلك الدول الظاهرة صناعيا، تلك الدول التي يعتبر الاقتصاد الحر فيها متوارثا جيلا بعد آخر.

هاينريش هايني الشاعر والفيلسوف الألماني له حكاية طريفة ذات دلالة عميقة، يمكن إسقاطها على الحالة الراهنة للنظم الوضعية نصها التالي:

ـتصاد والأدب

«إن ميكانيكياً إنجليزيا كان قد اخترع الآلات الصناعية على أحسن ما يمكن، وخطر بباله أخيرا أن يصنع إنسانا، وحالفه النجاح أيضا في ذلك، واستطاع هذا الشيء الذي صنعته يداه أن يسلك ويتصرف كإنسان، بل إنه حمل في صدره الجلدي نوعا من المشاعر الإنسانية التي لا تختلف أبدا عن مشاعر الإنجليز العادية، وكان في وسعه أن ينقل مشاعره بأصوات ملفوظة على نحو واضح، ثم إن خشخشة العجلات الداخلية وأصوات الحك وشد اللوالب التي سمعها المرء بعدئذ، أضفت على هذه الأصوات لهجة إنجليزية خالصة، وقصارى القول: إن هذا الجهاز الذاتي الحركة كان رجلا شريفا كاملا، ولم ينقصه شيء إلا الروح لكي يكون إنسانا حقيقيا، على أن الميكانيكي الإنجليزي لم يستطع أن يمنحه الروح. وهذا المخلوق المسكين، الإنسان الآلي، الذي صار على بينة بمثل هذا النقص راح يعذب صانعه ليل نهار طالبا منه أن يمنحه روحا، ومثل هذا الطلب الذي تكرر بإلحاح زائد، أثقل على الفنان، فضاق ذرعا به واضطر أن يفر هاربا من عمله الفني، على أن الجهاز الذاتي الحركة، سرعان ما لجأ إلى البريد السريع يتعقب صاحبه في القارة، ويسافر وراءه باستمرار، فيدركه تارة ويواجهه بعدئذ بصلصلة أو نخر أو قباع: هبني روحا».

إن المتابع الدقيق للأنظمة الوضعية وخاصة الاقتصادية منها ليستطيع بكل تأكيد إسقاط هذه الحكاية الكاريكاتورية الرمزية عليها.

لقد تمكن الأستاذ الفاضل علي الجارم من المزج بين التاريخ السياسي والأدبي، وقد اتضح ذلك في العديد من رواياته مثل «هاتف من الأندلس» و «فارس بني حمدان» و«الشاعر الطموح» و «خاتمة المطاف» و «شاعر ملك»[٢]. فهل نتوقع في المستقبل القريب ظهور أدب إسلامي، شعرا أو نثرا يمزج لنا بين التاريخ الاقتصادي والأدبي.

إن الناظر في آداب الآخرين لن يعجز من أن يجد شتى الصور الأدبية التي تصور أو تعالج جزءا من منظومتهم الفكرية، فعلى سبيل المثال رواية الكاتب الشهير في قومه «أورويل» والتي تحمل عنوان «مزرعة الحيوانات الثورية» والتي يهاجم فيها الأسلوب الشيوعي الخاطئ كمنهج للحياة. ومن المعلوم أن الحقل الاقتصادي هو العمود الفقري لذلك الأسلوب. ولعل القارئ اللبيب ينظر إلى مقال د. حلمي محمد القاعود «الرواية الإسلامية المعاصرة الواقع.. والآمال»[٣]. حيث إن هذا المقال يعكس صورا من ذلك.

صورة أخرى قد نجدها في كتاب «الأبطال» لمؤلفه «ويليام بايهام» و «جيف كوكس» وهو عبارة عن قصة أجرى المؤلفان أحداثها في قلعة أسموها «لامرون» وهدفها نشر فكرة «التمكين» وكيفية التغلب على أساليب الإحباط والخمول والملل. إن إحدى أكبر القضايا المعاصرة هي كيفية إيجاد وظائف جديدة، وزيادة إنتاجية

الوظائف الحالية، وكيفية دفع عجلة الاقتصاد العالمي إلى الأمام، وهذه قضايا ليست خاصة بفئة معينة من الناس، وإنما لكل منا دور فيها بحسب موقعه من المسؤولية.

«الأبطال» مرة أخرى عبارة عن قصة خيالية في شكلها العام، تروي كيفية التعامل مع هذه القضايا التي تهم العالم بأسره [٤]. وقد لا نتفق مع الكاتب في كل ما ذهب إليه من معالجة لهذه الأمور، حيث إن الهدف من التمكين لدينا قد نُصَّ عليه في قوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ ﴾[٥]. إلاّ أن هذه القصة تعطينا صورة عن أولوية أدبنا الرفيع في معالجة تلك القضايا المحلية العالمية. ذلك أن أدبنا عالمي النزعة، وينطلق من قواعد ربانية لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها.

كما أننا إذا تفحصنا المذاهب الأدبية وتوجهاتها نجد أن كلا منها قد غالى في قضية واحدة من قضايا الفكر على حساب سائر القضايا، فنجد أن المذهب الواقعي بأشكاله المتعددة ومنها الواقعية الاشتراكية، ترى أن الأدب هو أحد ثمار الحياة الاقتصادية، وتوجب خدمة المجتمع على أساس من النظرية المادية الجدلية والتاريخية والفكر الماركسي عامة. وللصراع الطبقي حظ وافر من اهتمام الأدب الاشتراكي. وفي المقابل نجد أن البرناسية وهو أحد المذاهب الأدبية الغربية يخرج بالأدب عن قضايا الناس وشؤون المجتمع، حتى عن قضايا الأديب نفسه، وهو يهمل الأخلاق، ويجعل من الأدب غاية في

علي الجارم

حلمي القاعود

حد ذاته.

لذا لم يستطع أي من هذه المذاهب الفلسفية أو الأدبية أن يصور الحقيقة الكاملة المتناسقة بكل أجزائها. والأدب الإسلامي هو الوحيد الذي يملك أن يصور الحقيقة المذكورة بكل أجزائها و يوصلها إلى قارئها بشكل يتواءم مع فطرته، ﴿ فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ .. ﴾[٦].

مصطلح " إعادة الهيكلة الاقتصادية " مصطلح يتردد ليل نهار في الإذاعات وفي الصحف بشتى أنواعها ، لكن القلة من البعيدين عن الحقل الاقتصادي يدرك المقصود من هذا المصطلح، والقلة من القلة قد يدرك أبعاد تلك الإعادة وأثرها في المجتمعات. وقد لا أكون مبالغا عندما أقول: إن هذا الإجراء حسب رأي أحد المتابعين، مشابه لإجراء بعض التعديلات على هيكل عظمي لدجاجة ما للوصول إلى هيكل عظمي لفيل ما. وإذا فرضنا جدلا إمكانية ذلك، فهل تتصور أيها القارئ العزيز إمكانية ذلك بالنسبة لبقية أنظمة الجسم كالجهاز الهضمي والجهاز العصبي والجهاز التنفسي... إلخ[٧].

إن أحد العوامل التي تساعد بإذن الله على تكامل الحقلين الاقتصادي والأدبي هو تخصيص بعض من صفحات مجلة الأدب الإسلامي لموضوعات تظهر التأثير المتبادل بين الأدب والاقتصاد أملا في تفعيل دور الأدب الإسلامي في خدمة الاقتصاد الإسلامي الذي يعد من مرتكزات الحضارة الإسلامية. ■

الهوامش :

(*) جامعة الملك سعود - فرع القصيم - كلية الاقتصاد والإدارة - قسم الأساليب الكمية.

(١) الأدب الإسلامي إنسانيته وعالميته، د.عدنان علي رضا النحوي، الطبعة الثالثة، ١٤١٥هـ/١٩٩٤م، صفحة ٥٠ - ٥١ .

(٢) مجلة المستقبل الإسلامي، عدد ١١٤، شوال ١٤٢١هـ، صفحة ٤٠ .

(٣) مجلة المنهل، عدد ٥٦٨، مجلد ٦١، جمادى الأولى و الآخرة ١٤٢١هـ، صفحة ٣٦ .

(٤) مجلة الكويت الاقتصادية، العدد الرابع، السنة الثانية، صفحة ١٣١ .

(٥) الآية ١٤، سورة الحج.

(٦) الآية ٣٠ ، سورة الروم.

(٧)انظر على سبيل المثال: الإسلام والتحدي الاقتصادي، د. محمد عمر شابرا، من منشورات المعهد العالمي للفكر الإسلامي والمعهد العربي للدراسات المالية والمصرفية، ١٤١٦هـ ١٩٩٦م.